﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: 58]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من بيانِ أوصافِ القرآنِ إلى الواجبِ تجاهها

لما نبَّه الله تعالى في الآية السابقة على الأسرار العالية الإلهيَّة للقرآن الكريم بما يكون سبب فرح للمؤمن من كون القرآن موعظةً تطهِّر ظواهر الخلق عمّا لا ينبغي، وشفاءً يطهِّر الأرواحَ عن العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة، وهدًى ينير القلوب بنور الحقِّ، ورحمةً تحقِّق الكمال والإشراق؛ أعقبَ ذلك بقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[1]، فالمناسبةُ بين الآيتين، في كون الأولى بيانًا لأوصاف القرآن، واللاحقة تنبيهًا على الانتفاع بتلك الأوصافِ، وأنَّ الانتفاعَ بها هو سببُ الفرحِ المحمود، وما سواه فسبب الفرح المذموم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾: الفَرَحُ: نقيضُ الحزن، وهو السرور والابتهاج والرضا، فيجدُ الإنسان في قلبه خفَّة، ويتخلَّص ممّا يُثقل، ويُغمُّ، ولذَّةُ القلب بنيلِ ما يشتهي[2]، والفرح: انشراحُ الصَّدر بلذَّةٍ عاجلةٍ، وأكثرُ ما يكون ذلك في اللَّذات البدنيَّة الدنيويَّة[3]، والفرحُ: أيضًا الأَشَرُ والبَطَرُ[4]، وذلك عندما يكون سببهُ غيرَ مشروع، أو يؤدّي إلى التجاوز بغيًا وطغيانًا أو ما هو إليه، وقد جاء النهيُ عن هذا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/269.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (فرح).
(3) الراغب، المفردات، ص: 628.
(4) الفيومي، المصباح المنير: (فرح).

النوع من الفرح وذمُّه[1]، والمراد بالفرح في الآية: الفرحُ المنبعثُ عن انشراح الصدر، وشدَّة السرور بفضل الله ورحمته[2].

❁ المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

تـمـامُ الـنِّـعـمـةِ وكـمـالُ الرَّحـمـةِ هو الفرح المقترن بالفرح

ينبِّه الله سبحانه أنَّ كونَ القرآن هدًى ورحمةً للمؤمنين هو فضلٌ من الله عليهم، ورحمةٌ بهم يجب عليهم أنْ يفرحوا بهما تعظيمًا، ومحبَّةً، وإيثارًا على غيرهما، وأنْ يعلموا أنَّها نعمةٌ تفوقُ نعمةَ المال التي حُرم منها أكثرُ المؤمنين، ومُنحها أكثرُ المشركين، فيقول على لسان صاحب الرسالة ﷺ: افرحوا بكلِّ فضلٍ من الله ورحمة، وخاصَّةً العلمَ والإيمان والقرآن واتِّباع الرسول، لا بمتاع الدنيا، وأموالها الزائلة؛ فذلك خيرٌ ممّا يجمعه النّاس من حطامها الفاني[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الانتقالِ من خطابِ الجميع إلى خطابِ المفرد:

كـثـرةُ الـدَّلالات ووفـــرة المـعـاني دليل ثراءِ النَّظم وقوَّة الرَّصف

انتقلَ البيان الإلهيُّ من خطاب الجمع ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ إلى خطاب الفرد ﴿قُلْ﴾، وذلك لأمورٍ:

الأوَّل: تلوين الخطاب، فإنَّ الجمع بين لونين من الخطابِ أكثر ثراءً وأبلغ دلالةً.

الثّاني: توجيه رسول الله ﷺ ليأمرَ النّاس بأنْ يغتنموا ما في القرآن العظيم من الفضل والرحمة[4].

الثّالث: التَّنويه بمضمون المقول بحيث يُؤمر الرسول أمرًا خاصًّا بأنْ يقولها، وإنْ كان جميع ما ينزَّل عليه من القرآن مأمورًا بأنْ يقوله[5].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فرح).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/204، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6355.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/204.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/204.

الرّابع: الإشارةُ إلى علوِّ مقامِ الرسالة والرَّسول، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ هو الوحيد المكلَّف بإبلاغهم وتوجيههم، وأنَّ طاعته من طاعة الله ﷻ.

الخامس: بيانٌ للمرجعية الحقيقيَّة التي يجب أن يرجع إليها النّاس في معرفة الموعظة والشفاء والهدى والرحمة.

نكتةُ حذفِ متعلَّق فعل الأمر ﴿قُلْ﴾:

دعـوةُ الـقـرآنِ عـالـميَّـةٌ مـا بقي الـزَّمـان ومـا تعاقب المَلوان

حذفَ البيانُ الإلهيُّ متعلَّق الفعل ﴿قُلْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾، فلم يقل: (قل لهم بفضل الله)؛ وذلك لإفادة تعميم المعنى المناسب له؛ ذلك أنَّ الفعل وما هو معناه متى قُيّد بشيء؛ تقيَّد بهِ، فإذا أطلقه الله تعالى، وحذف المتعلَّق؛ كان القصد من ذلك التعميم، ويكون الحذف هنا أحسنَ من ذكر المتعلِّقات، وأجمع للمعاني النافعة؛ إذ إنَّ الرسول ﷺ رسولٌ للعالمين، ورسالته هي الرسالة الخاتمة، فيترتَّب عن ذلك أنْ يكون خطابُه عامًّا موجَّهًا للجميع غير مقيَّد، وقد جرت عادة القرآن على حذف متعلَّق الفعل ﴿قُلْ﴾، إلا في مواضع قليلةٍ ذكر متعلَّقها لأسبابٍ خاصةٍ بهذه المواضع، فالآيةُ تخاطبُ النَّبيَّ ﷺ بأن يقولَ مضمونها دون تقييدِه بزمنٍ، أو مكانٍ، أو طائفة، أو قبيلة، أو قرية، بل هو عامٌّ صالحٌ للجميع إلى يوم الدّين، ففيه بيان أنَّ من خصائص القرآن أنَّه دعوةٌ عالميَّةٌ، غير محصورةٍ بأحدٍ، فإذا ما أعرض قومٌ؛ أقبل أقوام، وإذا ما أدبر زمانٌ؛ أقبل آخر، فدعوة القرآنِ باقيةٌ ما بقي الزَّمان، وما تعاقب الملوان.

معنى الباءِ في: ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾:

البـاءُ جـمـعـت بـيـن الإلـصـاقِ والسببيَّة بإيجاز لفظٍ وثراء معنى

الباء في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ متعلِّقة بأحد فعلين:

إمّا بالفعل (جاءَ) مقدَّرًا، دلَّ عليه المذكور بقوله تعالى: ﴿جَآءَتْكُم﴾، والتقدير: جاءتكم المذكورات بفضل الله وبرحمته، وإمّا بالفعلِ (يفرح) مقدَّرًا؛ دلَّ عليه المذكور بقوله تعالى: ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾، والتقدير: قل ليفرحوا بفضل الله وبرحمته.

وعلى كلا القولين فإنَّ الباء تحتمل وجهين:

أحدهما: الإلصاق، ليكون المعنى على التَّقدير الأول: جاءتكم المذكورات من الموعظة والشفاء والهدى والرحمة ملتصقةً بفضل الله ورحمته، لا تنفكُّ عنها.

وعلى التقدير الثاني: قلْ ليفرحوا ملتصقين بفضل الله ورحمته.

والآخر: السببيَّة، ليكون المعنى على التقدير الأول: جاءتكم الموعظة والشفاء والهدى والرحمة بسبب فضله ورحمته سبحانه.

وعلى التقدير الثاني: قلْ ليفرحوا بسبب تفضُّل الله عليهم ورحمته بهم.

وقد جمع أبو حيان بين الإلصاق والسببيَّة في تفسيره للآية بناءً على تعليقه الباء بالفعل (يفرح) بعبارة جميلة إذ يقول: "فالمؤمنون يُقال لهم: فليفرحوا وهم متلبِّسون بعلَّة الفرح وسببه، ومخلِصون لفضل الله منتظرون لرحمته"[1].

غرضُ دخول الباء على كلٍّ من الفضل والرحمة:

الفضلُ والرحمةُ كـلٌّ منهما مستقلٌّ بالفرح به أو متعلِّقٌ بأوصافِ القرآنِ المذكورة

في قوله تعالى: ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ يتمثَّل غرض دخول الباء على كلٍّ من الفضل والرحمة بأحد أمرين؛ إمّا للدَّلالة على "استقلالِ كلٍّ منهما بالفرح به"[2]، فكلٌّ منهما سببٌ للفرحِ، أو الفرحُ مُلتصقٌ بكلٍّ واحد منهما.

وإمّا للدَّلالة على استقلال كلٍّ منهما بملازمتها والتصاقها بالمذكورات من الموعظة والشفاء والهدى والرحمة، أو بكونها سببها؛ لمجيئها من الله سبحانه.

غرض تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

أخَّر البيان الإلهيُّ فعل الأمر ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾، وقدَّم عليه متعلَّقه

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/75.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/333.

وهو الجار والمجرور ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾؛ للاهتمام به، ولإفادة القصر، أي: بفضل الله وبرحمته دون ما سواه ممّا دلَّ عليه قوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، فهو قصرُ قلبٍ تعريضيٌّ بالرَّدِّ على المشركين الذين ابتهجوا بعرض المال، فقالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ [سبأ: 35][1]، كأنَّه قال: إنْ كان في الدنيا شيءٌ يستحقُّ أنْ يُفرحَ به؛ فهو فضلُ الله ورحمته[2].

قـضـرُ الـفـرحِ عـلى فضلِ الله ورحمته تعريضٌ بـاعـتـقـادات المشركين

نكتةُ إضافة الفضل إلى لفظِ الجلالةِ في: ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ﴾:

أضافَ البيانُ القرآنيُّ الفضلَ إلى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ الدالِّ على الألوهيَّة في قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾، ولم يقل: (قل بفضل ربِّكم وبرحمته) وذلك للطائف عدَّة:

فـضـلُ الـلـه ورحـمـتـه تـعـمُّ المؤمنين وتخصُّ المحسنين

أوَّلًا: مناسبة السياق، ففي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أتى بالرُّبوبيَّة؛ لأنَّه خطابٌ عامٌّ يشمل كلَّ مربوب، أمّا في قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾؛ فهو خطاب خاصٌّ بالمؤمنين، لذلك أتى بلفظ الألوهيَّة دون الرُّبوبيَّة التي هي أعمُّ وأشمل من الألوهيَّة، فعطاء الرُّبوبيَّة يشمل كلَّ النّاس مؤمنهم وكافرهم، أمّا عطاء الألوهيَّة؛ فهو خاصٌّ بالمؤمنين الذين يتَّبعون منهجه سبحانه[3].

ثانيًا: تأكيدُ عظمة الفضل الذي أعدَّه الله للمؤمنين؛ فاسم الله الجليل يدلُّ على الكمال والعظمة؛ وعليه فإنَّ الفضلَ المضاف إلى الإله العظيم لا بدَّ أنْ يكون عظيمًا.

ثالثًا: تربية المهابة والعظمة في قلوب المؤمنين، فهم يؤمنون بالله إلهًا عظيمًا معطيًا، ممّا يزيدهم أملًا وثقةً بفضله سبحانه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/204.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/334.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 2/218، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 9/5277.

معنى الفاءِ في: ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾، و ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾:

الـفـاءُ بين التفريعِ الذي يتمِّم الكلام ويكمِّله وبين إفادةِ معنى الشرط

يحتمل معنى الفاء في قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ وفي قولِه: ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون الكلام تفريعًا عمّا سبق، فتكون (الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ تفريعيَّة اُفتتِحت بها الجملة؛ لأنَّه تفرَّع عن كونِ القرآن هدًى ورحمة للمؤمنين تنبيهُهُم إلى أنَّ ذلك فضلٌ من الله عليهم، ورحمةٌ بهم يحقُّ لهم أن يفرحوا بهما، وأن يقدروا قدرَ نعمتها، وأن يعلموا أنَّها نعمةٌ تفوقُ نعمةَ المال التي حُرِم منها أكثرُ المؤمنين، ومُنِحها أكثرُ المشركين، وتقديرُ نظم الكلام: قل لهم فليفرحوا بفضل الله وبرحمته بذلك ليفرحوا[1].

وأمّا (الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾؛ فإنَّ القرآن لَمّا قصدَ توكيد الجملة كلِّها - بما فيها من صيغة القصر - قرنَ اسمَ الإشارة بها؛ تأكيدًا لفاء التفريع التي في ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾؛ لأنَّه لما قُدِّم على متعلَّقه؛ قُرن بالفاء لإظهارِ التفريع في ابتداء الجملة[2].

ثانيها: أن يكون الكلام استئنافًا ناشئًا ممّا تقدَّم من النعمة على المؤمنين بالقرآن، فتكون (الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ رابطةً لجواب الشرط، والفاء في ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ مؤكِّدة للربط؛ لأنَّه لَمّا قدَّم المجرور - وهو ﴿بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾ - حصل بتقديمه معنى الشرط؛ فقُرنت الجملة بعده بالفاء التي تربط الجواب لقصد إفادة معنى الشرط[3]، والمعنى: إنْ علموا ذلك؛ فبذلك فليفرحوا.

ثالثها: أن تكون الفاءُ تفريعيَّةً في قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ فصيحةً في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾، والتَّقدير: قل لهم بفضل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/204.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/204.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/205. وهذا كثير في الاستعمال، كقوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾ [المطففين: 26].

اللّه وبرحمته، فافرحوا، فبذلك الفرحُ إن تحقَّق، فليفرحوا هو خيرٌ ممّا يجمعون.

معنى الباءِ في: ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ تحمل معنيين:

أحدهما: الإلصاق، والمعنى: فليفرحوا ملتصقين متلبِّسين متمسِّكين بالقرآن الذي هو فضلُ اللّه ورحمته، والآخر: السّببية، والمعنى: فليفرحوا بسبب فضل اللّه ورحمته، وهو القرآن الكريم، فهو سببُ كلِّ فرحٍ.

الالتصاقُ بفضل اللّه ورحمته سببُ الفرحِ العظيم

والمعنيان يجتمعان في الآيةِ، فالالتصاقُ بفضل اللّه ورحمته سببٌ للفرح العظيم.

نكتة إظهار اسم الإشارة ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾:

اسم الإشارة (ذلك) اسم ظاهرٌ وُضع موضِع المضمر، فلم يقل: (فبهما فليفرحوا)؛ وفائدة هذا الإظهار هو الإشعارُ بعلوِّ شأن الفضل والرحمة بالتَّنصيصِ عليهما إشارةً، وإبرازِهما بالتَّشخيص والتَّجسيد.

الإشعار بعلوِّ شأنِ الفضل والرحمة وتجسيدهما

الغرضُ من التعبير باسم الإشارةِ للبعيد في: ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾:

الإشارة في قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ للمذكور، وهو مجموعُ الفضلِ والرحمةِ، واختير للتعبير عنه اسمُ الإشارة (ذلك) الذي يُستخدم للبعيد؛ لأمورٍ:

الفرحُ البهيجُ لا يكون إلّا بعد الاجتهادِ والمثابرة

الأوَّل: لِما فيه من الدَّلالة على التَّنويه بفضل اللّه ورحمته، وتعظيمهما، وبيان بُعْدِ درجتهما[1]، مع زيادة التمييز[2].

الثّاني: مقتضى الإشارةِ للبعيدِ دعوةُ المخاطَبين للحرصِ على نيل الفضل والرحمة، وبذل الجهد لذلك، فإنَّ اسم الإشارةِ للبعيدِ يومئ إلى الاجتهادِ والصَّبر لتحصيل ذلك الفرح البهيج.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/204.

الثّالث: بيان أنَّ هذا الفرح لا يناله الكسالى ولا البطّالون من النّاس؛ إذ هو بمنزلةٍ سامقةٍ.

بلاغةُ الحذف والإطناب:

الجمعُ بين وجازةِ اللّفظِ وإطنابِ المؤكّدات جزالةٌ وفخامةٌ

في قوله تعالى ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ حذفَ البيانُ الإلهيُّ الفعل (ليفرحوا) المقدَّر وهو ما تتعلَّق به الباء؛ لدلالة المذكور عليه؛ إذ أصلُ الكلام من حيث الصَّنعة: (بفضل الله وبرحمته فليفرحوا، فبذلك فليفرحوا)[1]، فصار مفيدًا مفادَ جملتين متماثلتين مع إيجازٍ بديع[2].

وبالمقابل أطنبَ البيانُ الإلهيُّ بذكر: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾؛ إذ الظاهر أنَّ قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ جملتان، حذف في الأولى ما تتعلَّق به الباء ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾، والتقدير: (قل بفضل الله وبرحمته ليفرحوا)، ثمَّ عُطفت الجملة الثانية على الأولى ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ على سبيل التوكيد. قال الزمخشري: "والتكريرُ للتقرير والتَّأكيد، وإيجابِ اختصاصِ الفضل والرَّحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا"[3]، وتقدير معنى الكلام: قل فليفرحوا بفضل الله وبرحمته لا سواهما فليفرحوا بذلك لا سواه[4]، ولا يخفى أنَّ هذه التَّقديرات مبنيَّةٌ على صنعةِ الكلام، وإلّا فنظم الآيةِ جاءَ بديعًا في معناه وفحواه، وهو لا يحتاجُ إلى تلك التَّقديرات؛ لأنَّها تنقله من مقامِ الإعجازِ إلى مقامٍ آخر، ومن تأمَّل النَّظم؛ عَلِمَ ما فيه من بديع الرَّصفِ وجليلِ الوصفِ.

معنى اللّام ودلالتها في: ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾:

الأمرُ بقصد الإلهابِ والتَّهييج

(اللام) في قوله تعالى: ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾ هي لام الأمر، والأصل أنَّ

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/30.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/204.
(3) الزمخشري، الكشاف: 2/353، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/75.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/204.

اللام في فعل الأمر للمخاطَب والغائب، إلا أنَّ العرب حذفوا اللام في فعل المأمور المخاطَب؛ لكثرة الاستعمال، وحذفوا التاء أيضًا، وأدخلوا ألف الوصل، فأصبحت (افرحوا)، وبقي الأمر باللام في الغائب على الأصل (ليفرحوا)، وغرضُ الأمر التَّحريضُ والإلهاب والتَّهييجُ على إتيانِ أسبابِ الفضل والرَّحمة، أي: إن كان من شيءٍ يُفرحُ به؛ فافرحوا بهذين الأصلين العظيمين.

دلالةُ الإتيانِ بمفردةِ الفرحِ: ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾:

فـرحٌ يُشعرُ بسرعةِ خيرٍ يجدُه المؤمنون وسوءِ بَطَرٍ يعيشهُ المشركون

عبَّر البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ بمفردة الفرح دون السرور، رغم أنَّهما - من حيث المعنى اللُّغوي - متقاربان دلاليًّا؛ إذ يشتركان في أنَّهما خلاف الحزن، وبهما يحصلُ الشُّعور بانشراح الصدر وارتياح القلب؛ وذلك لِما في معنى الفرح من مَلْمَحٍ دلالي يُميّزه عن السُّرور، وهو ارتباطه باللَّذة العاجلة، والتخلُّص العاجل من الثقل والغمِّ، وظهور آثاره وعلاماته على ظاهر الإنسان، ولذا كان استخدامه في سياق الحديث عن أحوال المشركين، وما سيلاقونه من حسْرةٍ وندامةٍ بسبب انشغالهم، وفرحهم المذموم بمتاع الدنيا، وتعلُّقهم بأسبابها، وإعراضهم عن خالق الأسباب والمسبِّبات، فكان استخدام الفرح أنسبَ عند الحديث عن حال المؤمنين بما يشير إلى سرعة الخير الذي يجدونه في الدُّنيا قبل الآخرة، وإلى سوء الفرح، وهو البطر الذي عليه المشركون بما يجمعونه من حطام الدنيا؛ إذ بضدِّها تتميَّز الأشياء، كما أنَّ التعبير بمفردة الفرح في الآية الكريمة دون مفردة الاستبشار هو الملائم؛ لأنَّ الفرحَ بالمحبوب يكونُ بعد حصوله، والاستبشار يكون به قبل حصوله؛ إذا كان على ثقةٍ من حصوله، ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: 170]، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ فضل الله ورحمته

قد حصل في حياة المؤمنين تعظيمًا ومحبَّةً وإيثارًا؛ فالفرحُ بالعلم والإيمان والقرآن دليلٌ على تعظيمه عند صاحبه، ومحبَّتِه له، وإيثارِه له على غيره، فإنَّ فرحَ العبدِ بالشيء عند حصوله له يكون على قدرِ محبَّته لهُ ورغبته فيه، فمَنْ ليس له رغبة في الشيء لا يُفرحه حصولُه له، ولا يُحزنه فواته، فالفرحُ تابعٌ للمحبَّة والرغبة[1].

سرُّ العدولِ عن خطابِ المقولِ لهم إلى الغيبةِ في: ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾:

التفتَ البيانُ الإلهيُّ من الخطابِ بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى﴾ إلى الغَيبة بقوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾، ولم يقل: (فافرحوا)، وذلك لاختزالِ المعاني، والمعنى: قل لهم بفضل اللّه وبرحمته فافرحوا، فبذلك إن تحقَّق؛ فليفرحوا، وهذا على جعل الفاء فصيحةً، فجاءَ قولُه تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ سادًّا مسدَّ الأمر بالفرح، مع تعليله، مع ما في ذلك من تجديد الانتباه له والتأمُّل فيه، وتغيُّرِ الخطابِ من العام إلى الخاص، فالخطاب أوَّلًا كان مع النّاس جميعهم مؤمنهم وكافرهم، والخطابُ بالغيبة ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾ للمؤمنين، فعدلَ عن الخطاب إلى الغيبة، لينبِّه على ذلك، وليدخلَ في الخطاب من لم يكن وقت نزول الآية من المؤمنين، فيشملَ بذلك عموم المؤمنين إلى يوم القيامة، ويؤكِّد ذلك حذف متعلَّق ﴿قُلْ﴾ لقصد التعميم.

الـفـرحُ بفضلِ الـلـه ورحـمـتـه لـلـمـؤمـنـين جميعًا إلى قيامِ الساعة

الغرض من التعبير بالجملةِ الاسميَّة في: ﴿هُوَ خَيْرٌ﴾:

جاءت الجملة اسميَّةً، وهي قوله تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ لأمرين:

الأول: بيَّنتِ المقصودَ من القصْر المستفاد من تقديم المجرورين في قوله تعالى: ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾[2]، وهو الفرحُ بفضلِ وبرحمته دون ما سواه من حطامِ الدنيا، والأموال التي

فـضـلُ الـلـه ورحـمـتـه نعمةٌ لا توازيها أموالُ الدنيا وهو حكمٌ إلهي ثابتٌ

(1) ابن القيم، مدارج السالكين:/148.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/205.

تتباهى بها قريش، أي: إنْ كان شيءٌ يستحقُّ الفرح؛ فهو فضلُ الله ورحمته؛ فهما نعمةٌ تفوقُ نعمةَ المالِ التي حُرِم منها أكثر المؤمنين، ومُنِحَها أكثرُ المشركين بالظُّلم والتسلُّط على أموال المسلمين.

الآخر: أعطتْ هذا المعنى ثباتًا ودوامًا، فهو حكمٌ إلهيٌّ ثابتٌ لا يتبدَّل، ولا يتغيَّر، وأشارت إلى أنَّ السعادات الروحانية أفضلُ من السعادات الجسمانيَّة التي ليست غير دفعِ الآلام، ولا تنفكُّ عنها المكاره، ومتاعها لا يدوم، وتبعاتها حسرات[1].

معنى حرفِ (من) في: ﴿مِّمَّا﴾:

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ هي ابتدائيَّةٌ؛ ففضلُ الله ورحمتُه خيرٌ ممّا يجمعه النّاس، وهذه الخيريَّة شاملةٌ لكلِّ ما يجمعونه، إذ تبدأ ممّا يجمعه النّاس، وتنتهي بآخره، فهي أفادت الشُّمولَ، فخيريَّة فضل الله ورحمته أعلى من كلِّ الذي يجمعه النّاس من متاع الدُّنيا وزينتها وكلِّ ما فيها.

فـضـلُ الـلـه ورحمته خيرٌ من كلِّ متاعِ الدنيا ابتداءً وانتهاءً

معنى (ما) في: ﴿مِّمَّا﴾:

(ما) في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ اسم موصول يفيد العمومَ، والمعنى: عطاءاتُ القرآن من الموعظة والشفاء الهدى والرحمة هي خيرٌ من كلِّ ما يجمعونه من الدُّنيا ماديًّا كان أو معنويًّا.

عـمـومُ كـون ما يجمعُه النّاس ماديًّا ومعنويًّا دون فضلِ الله ورحمته

كما أنَّ في (ما) إجمالًا لم يُفصَّل، وذلك في وجه تفضيل الفضل والرحمة ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ على ما يجمعونه؛ لقصدِ إعمال النظرِ في وجوه تفضيله، فإنَّها كثيرةٌ، منها واضحٌ ومنها خفيٌّ[2]، ولتفخيمِ هذه الوجوه.

وقد أفاد مجيءُ العموم والإجمال في (ما) في سياق الآية؛ ليفيد المبالغة في تعظيمِ تفضيلِ عطاءات القرآن على ما يجمعونه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/269، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/207.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/207.

من حُطام الدنيا، فكلُّ ما يجمعونه لا يُداني هذه العطاءات العظيمة الكثيرة.

نكتة الإضافة في: ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾، والإسناد في: ﴿يَجْمَعُونَ﴾:

العطاءُ المضافُ إلى الباقي سبحانه باقٍ، والعطاءُ المضافُ إلى الفاني فانٍ

أضافَ البيانُ الإلهيُّ الفضلَ والرحمة إلى الله بقوله: ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾، وأسندَ فعل يجمعون إلى ضمير النّاس بقوله: ﴿مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾؛ ليُظهر البونَ الشاسع في الخيريَّة بينهما، فشتّان بين ما أُضيف إلى الله العظيم الباقي، وما أُسند إلى الضعيف الفاني؛ إذ لا مقارنة بينهما، فما أُضيف إلى العظيم الباقي؛ يكون عظيمًا لا يَحدُّه شيء، ولا يُقدَّر قدره، ولا حدَّ لزواله، فيشملُ الفضلَ والرحمة في الدنيا والآخرة، أمّا الأخروي؛ فظاهرٌ، وأمّا الدنيوي؛ فلأنَّ كمالَ النَّفس، وصحَّة الاعتقاد وتطلُّعَ النَّفس إلى الكمالات، وإقبالها على الأعمال الصالحة تكسَبُ الراحة في الدنيا والعيشة الهنيئة[1]، وما أُضيف إلى الضعيف الفاني فانٍ لا قيمةَ له ولا وزنَ له.

بلاغةُ التَّعبير بالفعلِ المضارع في: ﴿مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾:

كلَّما تجدَّدَ الجمعُ للدنيا؛ زادتْ خيريَّةُ القرآن

عبَّر البيانُ الإلهيُّ بالمضارع في قوله: ﴿يَجْمَعُونَ﴾ بدلًا من أنْ يقول: (جمعهم)؛ للدَّلالة على تجدُّد جمعِ المال وتكرُّرِه من طلّابه في كلِّ زمان ومكان، وذلك يقتضي عنايتهم بجمع الأموال، والمعنى: أنَّ فضل الله ورحمته خيرٌ ممّا يجمعه الكفار، ويستمرّون في جمعه؛ لأنَّهم وإنْ حصَّلوا ما به بعض الرّاحة في الدنيا؛ فهم شرارُ النُّفوس خساسُ المدارك[2].

كما أنَّ التعبير بصيغة المضارع يشير إلى بقاء خيريَّة القرآن متجدِّدةً بتجدُّد جمعهم للمال إلى قيام الساعة، أي: كلَّما تجدَّد جمعهم للمال؛ تجدَّدت خيريَّةُ القرآن على ما يجمعون.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/207.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/206.

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿يَجْمَعُونَ﴾:

توبيخُ الجامعين بـهـذا الـوصـفِ الغريبِ

حَذَفَ البيانُ القرآنيُّ مفعول ﴿يَجْمَعُونَ﴾؛ فلم يقل: (هو خير مما يجمعونه)؛ لأمورٍ:

الأوَّل: إفادة العموم، فيعمُّ كلَّ ما يجمعه النّاس من متاعِ الحياةِ الدُّنيا وزينتها في كلِّ زمانٍ ومكان، وهذا أبلغُ من ذكرِ المفعول به؛ لأنَّه يؤدّي إلى تخصيص بعضِ ما يجمعه النّاس دون بعض.

والإشارة إلى العموم فيما يجمعه النّاس من أعراض الدنيا يدلُّ على عِظَمِ فضلِ الله ورحمته؛ فإنَّهما خيرٌ وأبقى من كلِّ هذا المجموع مهما بلغ، ولذا فهما أولى بالطلب والتَّحصيل والفرح، فمَنْ فرحَ بهما؛ فقد فرحَ بأجلِّ مفروح به، لا بما يجمعُ أهلُ الدُّنيا منها، فإنَّه ليس بموضعٍ للفرح؛ لأنَّه عرضةٌ للآفات، ووشيكُ الزوال، ووخيمُ العاقبة[1].

الثّاني: إفادة الإبهام، قال الصاوي: "يجمعون، أي: من الدنيا وزخارفها، وأَبْهَمَها؛ إشارةً إلى أنَّها خسيسةٌ لا تساوي جناحَ بعوضة"[2].

الثّالث: معاملة المتعدِّي معاملةَ اللّازم، ففيه توبيخٌ لهم، بجعل صفتهم اللّازمة هي الجمع، كأنَّه وَصَفَهم بالجامعين، وهو وصفٌ غريب عجيبٌ، سببه غرابةُ عنايتهم بالدُّنيا وزخرفها.

توجيهُ القراءات القرآنيَّة في: ﴿مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾:

تـقـريـرُ خـيريَّـةِ الـفـرحِ بـالـلـه عـلـى الـفـرح بحطامِ الدنيا تثبيتٌ للمؤمنين وتـوبـيـخٌ للكافرين

في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ قراءتان متواترتان هما:

الأولى: قراءةُ الجمهور بالياء ﴿يَجْمَعُونَ﴾[3]، والضَّمير (الواو) عائدٌ على معلومٍ من الكلام، والمعنى: ليفرح المؤمنون أنْ جعلهم الله من أهل الفضل والرحمة، هو خيرٌ ممّا يجمعه الكفّار من الأموال[4].

(1) ابن القيم، مدراج السالكين: 3/149.
(2) الصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 807.
(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/285.
(4) البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن: 2/423، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/206.

الثانية: قراءةُ ابن عامر، وأبي جعفر، ورويس عن يعقوب بالتاء (تجْمَعونَ) بتاء الخطاب[1]، واخْتُلِفَ في توجيه هذه القراءة على أقوال:

الأول: أنَّ الخطاب للمشركين الذين شملهم الخطاب في أوَّل الآية بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، والمعنى: "فليفرَحِ المؤمنون هو خير ممّا تجمعون أيُّها المخاطَبون"[2]، فإنَّه بعد أنْ عمَّم الخطاب؛ خصَّ المؤمنين بالذكر وبالجدارة بالفرح، فبقي الخطاب لمن عدا المسلمين، وهم المشركون إذ ليس ثَمَّ غيرُ هذين الفريقين من النّاس هنالك، ولا يناسب جعْلُ الخطاب للمسلمين؛ إذ ليس ذلك أي جمعُ المالِ من شأنهم - كما تقدَّم آنفًا - بل إنَّهم ضحّوا به في سبيل الحقِّ، ويؤيِّد ذلك حالهم زمن نزول الآيات، ولأنَّه لا يظهر منه معنى التفضيل إلا بالاعتبار؛ لأنَّ المسلمين قد نالوا الفضل والرحمة، فإذا نالوا معهما المال لم ينقص ذلك من كمالهم بالفضل والرحمة[3].

وبناءً على ذلك يكون في الآية التفاتٌ من الغائب إلى المخاطَب، وهو في المعنى كقراءة الجماعة[4]، وغرضُ هذا الالتفات - مع الحمل على الانتباه والتفكير في المعنى ودفع السآمة والملل - هو التوبيخُ بالتصدّي والمواجهة الذي هو أشدُّ على النَّفس من التهديد بالغَيبة، وكذلك الإيماء بأنَّ حالهم لا يغيبُ عنه سبحانه.

الثاني: أنَّه عنى المخاطَبين والغُيَّب جميعًا، إلّا أنَّه غلَّب المخاطَب على الغائب، كما يُغلِّب التذكير على التأنيث، وكأنَّه أراد المؤمنين وغيرهم[5]، وعلى هذا المعنى يكون غرض الآية التَّنبيه والتحذيرَ من حطام الدنيا للناس جميعًا مؤمنين وكافرين؛ تحذيرٌ للكافرين مع توبيخ وتعنيف، وتنبيهٌ للمؤمنين حمايةً ووقايةً لهم بعد المدحِ والثناء.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفَرَحُ والسُّرورُ:

قد يُسمّى الفرح سرورًا، وعكسه[6]، إلا أنَّه عند الرجوع إلى المعنى اللُّغوي،

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/285.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/117، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/206.
(4) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/226.
(5) ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع: 4/282، والواحدي، التفسير البسيط: 11/234.
(6) الزبيدي، تاج العروس: (فرح).

والاستعمال القرآنيِّ لكلٍّ منهما نلاحظ فروقًا دقيقة بينهما، وتوضيح ذلك:

الـفـرحُ خـفَّـةٌ فـي الـقـلـب بـلـذَّةٍ عاجلة، والسرورُ انشراحٌ خفيٌّ في القلب بلذَّةٍ حقيقيَّة

الفرح في اللغة: نقيضُ الحزن، وهو السُّرور والابتهاج، وهو أنْ يجدَ في قلبه خفَّةً، ويتخلَّصَ ممّا يُثقل ويُغمُّ، والفرح: أيضًا الأَشَرُ والبَطَر[1]، وعرَّف الراغب الفرح بأنَّه: "انشراحُ الصَّدر بلذَّةٍ عاجلةٍ، وأكثر ما يكون ذلك في اللَّذّات البدنيَّة الدنيويَّة"[2].

والسُّرور في اللُّغة: من سَرَّ، وأصل مادة (سرر): الخفاء، والسِّرُّ: خالصُ الشيء، ومنه السُّرور؛ لأنَّه أمرٌ خالٍ من الحزن[3]، والسُّرور: الفرح وهو خلاف الحزن[4]، والسُّرورُ: ما ينكتم من الفرح[5]، والسُّرور: ارتياحٌ في القلب عند حُصول نفعٍ، أَو توقُّعه، أَو اندفاع ضَرَر، وانشراح الصدر بلذَّة فيها طمأنينة الصدر عاجلًا وآجلًا، وقيل: حقيقةُ السُّرور انشراحٌ يحصل في القلب فقط، من غير حصولِ أثره في الظاهر[6]. يتبيَّن من خلال المعنى اللُّغوي للفرح والسُّرور أنَّهما يتقاربان دلاليًّا؛ إذ يشتركان في أنَّهما خلاف الحزن، ويحصل فيهما شعورٌ بانشراح الصدر وارتياح القلب.

وتظهر بعض الملامح الدلاليَّة التي تميِّز كلًّا منهما عن الآخر:

فالفرح: أكثر ما يرتبط باللَّذة العاجلة التي أكثر ما تكون في اللَّذات البدنيَّة الدنيويَّة، فيشعر صاحبه بخفَّةٍ في قلبهِ، ويتخلَّص ممّا يثقل ويُغمُّ، كما أنَّ الفرح قد يصاحبه بطرٌ، فيكون مذمومًا، وأكثر استعمال الفرح في القرآن أتى في معرض الذَّمِّ.

(1) الفيومي، المصباح المنير، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (فرح).
(2) الراغب، المفردات، ص: 628.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سر).
(4) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (سرر).
(5) الراغب، المفردات، ص: 404.
(6) الزبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سرر).

وأما السُّرور؛ فإنَّه لا يكون مذمومًا، ولم يردْ في معرض الذَّمِّ، ويرتبط "بما هو نفع أو لذَّة على الحقيقة"[1]، ولم يرد السُّرور في القرآن إلا في اللَّذة الأخرويَّة[2]، كما أنَّه يتميَّز بالخفاء، ويختصُّ بالقلوب، فلا تظهر علاماته على ظاهر الإنسان، فالسُّرور هو ما ينكتم من الفرح.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 278.

(2) المواضع التي ورد فيها هي قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ١١﴾[الإنسان: 11]، وقوله: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ٩﴾[الانشقاق: 9]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ١٣﴾[الانشقاق: 13].

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 19 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-16-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 19 : المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-16-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6365726 بتاريخ 2024/02/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»